على طول الطريق ما بين بغداد وكركوك لم أشاهد أبداً حواجز أمنية أخضعتنا الى التفتيش أو المساءلة . لم أكن أحمل دفتر الخدمة العسكرية، وبدا لي هذا مقلقاً بعض الشيء ، فالمرء ينسى أحياناً، كأنه ما زال في زمن الحواجز الامنية والتفتيش أيام العهد المباد.. وقد فكرت قبل دخولي لمدينة كركوك أن علي أن أعتاد الحرية ، واذا كان علي أن أقلق فعلى أن أقلق عليها هي . الحرية!

في كركوك مدينة التآخي القومي

كل شيء يمضي هادئا .. وكرة القدم الشعبية تقدّم مثلا للسياسيين !

ضياء الخالدي

بن أحد المكتسبات الحالية هو اننا نستطيع ان نقوم بسياحة في وطننا من دون أن، يوقفنا احدهم ويسألنا : ماذا تفعلون هنا؟ كنت احمل أوراقا وقلما هي معداتي بوصفي كاتبا وكانت تلك هي كفايتي ومصدر فخري.. وحين وصلت الى كركوك لم اجد نفسي في مدينة أجنبية علي. كنت انسانا حرا في مكان تحرر توا من الماضي المليء بالعسف ومازال يصارع من اجل ان يستكمل حريته ويتلمس دلالاتها ويحل مشكلاتها الجديدة.

لم تكن لي أهداف محددة في هذه المدينة . اردت أن أراها وحسب، واعرف ما الذي يحدث فيها، فأنا أعلم انها تكاد تكون مخبرا حقيقا للتنوع العرقي من عرب وكرد وتركمان واثوريين، وهي من ثم صورة للمستقبل العراقي الديمقراطي الذي يأخذ بالحسبان هذا التنوع ويجعل منه واحدة من قواد وليس ضعفه.

الاعلام .. والوحدة

ان أشاهد ليس الا . واول ما لفت نظري الاعلام المعلقة على أعمدة الكهرباء او في اماكن مختلفة من المدينة ، اعلام مختلفة تحيل الى مراجع سياسية مختلفة ، فهناك علم جمهوريتنا الذي يعلم عن الدوائر الحكومية، وثمة علم آخر بثلاثة الوان، احمر في الاعلى واخضر في الاسفل وابيض في الوسط مع صورة الشمس : ذلكم هو علم كردستان . وهناك علم يشبه العلم التركي لكنه ليس أحمر بل سمائي ، وهذا للتركمان . فيما عدا ذلك كانت هناك اعلام سود وخضر وحمر تشير الى مناسبة عاشوراء الماضية.

تلك كانت علاقات للتنوع القومي والمذهبي في المدينة . وكما علمت أن بعضها علق بعد الصدمة الاولى لسقوط النظام ورافقتها نشاطات حماسية ذات مضمون قومي من قبيل المظاهرات ، الا انها لم تتعد ذلك.

والحال انه بعد سقوط النظام السابق وهذا ما اخبرنا به بعض المواطنين حدثت أعمال سيئة بسبب انعدام الامن ، لكن بمرور الايام تخلص الناس من انفعالهم الاول واخذوا يعون ما يدور حولهم ، وبرزت حقيقة في الشارع الكركوكلي أن المدينة للجميع ، وأن النظام الفاشي الذي الب قومية على اخرى واثار العداء القومي والطائفي لم يعد له وجود ، وأن اثاره يجب أن تمسح ، وكما وحدت القبور الجماعية الجميع في الموت، وقد ضمت العرب والكرد والتركمان والاثوريين، فان الحياة والحرية توحدهما الان على نحو فعال ومنتج، وأن لا سبيل الا بالعيش معا بأخوة عراقية جددتها الحرية وآمال المستقبل.

أزمة انتهت

كل شيء هادئ في المدينة: رجال المرور يقفون في تقاطعات الشوارع ينظمون المرور ويعلنون عن وجود النظام. لا وجود في المدينة لاختناقات مرورية كما في بغداد . الشرطة العراقية بملابسهم الجديدة تحرس المصارف والمستشفيات والدوائر الحكومية . لفت انتباهي الازدحام الشديد على محطات الوقود ، أرتال طويلة من السيارات تنتظر الفرج والسائقون يحتمون من لهيب الشمس تحت الاشجار القريبة . أزمة اذن ، ولعلها اكبر من أزمة بغداد . وعرفت من أحاديثي مع بعض الناس أن البانزين والكاز يهربان الى ايران ، وقد بدا لي الامر غريبا، فايران لا تحتاج الى البنزين..

أهي اشاعة ؟

البعض قال ان سبب الأزمة وجود باعة يتعاملون في السوق السوداء، بتواطؤ مع أصحاب محطات الوقود.

في كل الأحوال ، سواء كانت هذه الازمة مفتعلة ام لا فقد انتهت اثناء مكوثي في المدينة ، وعلى وجه التحديد يوم 2003/7/18 . فلم أعد أشاهد ازدحاما والاشاعات ماتت.

استطيع الجزم، انه بأستثناء دهوك والسليمانية واربيل ، فأن كركوك واحدة من المدن التي تستهلك بكثرة أطباق الستلايت . وقياسا لعدد السكان . فأن نسبه من رفع على سطح بيته طبقا تعد عالية جداً ، حتى انها أكثر من العاصمة بغداد. تفسير ذلك أن كركوك قريبة من الوكلاء المجهزين المنتشرين في كردستان فضلاً عن انخفاض سعره بوجود منافسة قوية وطلب كبير ، والبعض يقول أن كميات كبيرة من أجهزة الستلايت وصلت الى تركيا بأسعار رمزية . لها كان الامر فكركوك أضحت من المدن العراقية المفتوحة جدا على العالم.

البعض قال لي أنهم يستطيعون الان التمييز والاحتكام الى العقل في هذا الانفتاح المفاجئ ، ولم ينسوا الاشارة الى ان المحطات العربية الفضائية التي مازالت تدس السم بالعسل ، لم تعد تشكل المصدر الوحيد للاخبار والمعلومات.

ازاء ذلك اضحت أجهزة التلفاز العادية تنقل عدة قنوات ، وبعضها اشيء حديثا، مثل التلفزيون التركماني الذي يبدا بثه من الساعة السادسة مساء وحتى الساعة الثانية عشرة ليلا، ويقدم القليل من البرامج المحلية واللقاءات. وتلتقط هنا الكثير من المحطات التركية التي تنقل مباريات كرة القدم وبعض المسلسلات والافلام. أما قنوات اقليم كردستان فهي تزيد على الأربع ، الا اننا لم نشاهد قناة بالعربية.

شائعات كاذبة

في أيام وصولي الى كركوك ، وكانت أيام تموزية ساخنة ، انتشرت اشاعة مفادها أن الرئيس المخلوع سوف يعود الى الحكم يوم 17 تموز. البعض صدق تحت تأثير بعض الكتابات والشعارات التي خطت على بعض الجدران المؤيدة للطاغية، ثم ظهرت حكايات عن ظهور ما يعرف بالفدائيين في اكثر من مكان بالمدينة ، ويقال أنهم دخلوا الى الشركة العامة لتسويق المنتجات النفطية بعد اجتيازهم أجراءات الحراسة الامريكية والعراقية، ومحادثتهم للحارس الموجود وتوعدهم بأنهم يستطيعون فعل أي شيء لو أرادوا ذلك. هناك الكثير من الشائعات تبث هنا، والقصد منها ترويع الناس وتهديدهم .

ولقد مر يوم 17 تموز من دون ان يظهر الدكتاتور الذي مازال هاربا.

الرياضة أقوى من الشائعات

والحال أن هناك فئات مازالت تبث الاشاعات وتحول نفسها الى بوق كريه. الغريب انني سمعت من بعض الناس أن الامريكيين هم وراء الشائعات التي تقول بعودة الرئيس المخلوع لتخويف المواطنين.

إن الكثيرين هنا، كما هو الحال في المدن العراقية الاخرى، مصابون بفكرة المؤامرة.. لكن الحياة تمضي قدما ، بطيئة لكن حثيثة وتقدم بين الحين والحين وعوداً جديدة. بالنسبة لي فضلت ان أشاهد بعض المباريات بكرة القدم التي تقام بين فرق شعبية على الاهتمام الجدي بتلك الشائعات ونظرية المؤامرة. ثمة شيء حي هنا يثير الاهتمام ، كبطولات كرة القدم الشعبية تضم جميع قوميات المدينة.. ليس ثمة تصنيف لفريق عربي وهذا فريق كردي وذاك فريق تركماني ، فإغلب الفرق المشاركة تضم خليطاً من عرب وكرد وتركمان واقليات اخرى. الفرق هنا تشكل على اساس المنطقة السكنية ، وهذه تضم اللاعبين الاصدقاء منذ طفولتهم ، ولا فرق ، فالطفولة التي وحدتهم، فضلاً عن أواصر الجيرة ، هما العاملان الاساسيان في الرياضة الشعبية .. والحياة اقوى من السياسة .. لكن اللعب المشترك في الرياضة قد يقوي الاحساس لدى السياسيين بأن يمارسوا لعبتهم السياسية على أساس من الشراكة والمصالح المشتركة . الأولاد الشجعان المتحررون من الشوفينية يقدمون في كركوك مثالاً على الحب والعيش المشترك.

في ميسان

لقد أفسدوا الماء .. والمشكلة مازالت قائمة

هل يفسد الماء؟ بل ينتن. يضحي مالحا وكدراً وله طعم ورائحة ، يضحي حاضنة جراثيم وأوبئة تيفونيد وهيضة وملاريا وزحار الخ وهو يفسد في الأنهار إذا ما ركدت ولم تعد تجري . الجريان يجعلها تتجدد وقد يعادل كدرها وجراثيمها في جريانه

مدينة العمارة محاطة بالمياه، يشقها نهر، تحيطها ترع، وعلى مبعدة منها أهوار . لكن ميسان التي هي جزء من الارض التي ولد فيها الطوفان الكبير تبحث عن مياه صالحة للشرب وانت تتجول هنا تقرأ كتابات على بعض الحوانيت ماء حلو ماء معقم . اشرب وارتو . ماء صحي أهالي ميسان يوضحون الحالة بأن الانهار امتلأت بالماء المالح . ما من أحد صب فيها الملح . لكن نظاما فاسداً قادراً على افساد المياه وتلويثها لاسباب سياسية . بالامكان تصنيع الملح من مياه تجري اعاقتها وتطويعها لغرض القتل . واللحظة التي بدات فيها هذه العملية لاتكذب. فبعد عام ، وبعد الانتفاضة على وجه التحديد، أضحت الشطوط المتلئة عافية مريضة، لاتمشي ، تسير ببطء، راكدة المياه أضحت خضراء والأخضر لون جميل لكنه في المياه علامة شؤم . لقد أنتشرت سدود ومصدات وبحيرات ومبازل تصب في الحفر الهدف تجفيف الأهوار . لكن حتى مقبل الأهوار جرى أفساد الماء أن المرء يرى مستنقعات لامياها وهذا هو السر في إن الناس أخذت تشتري المياه

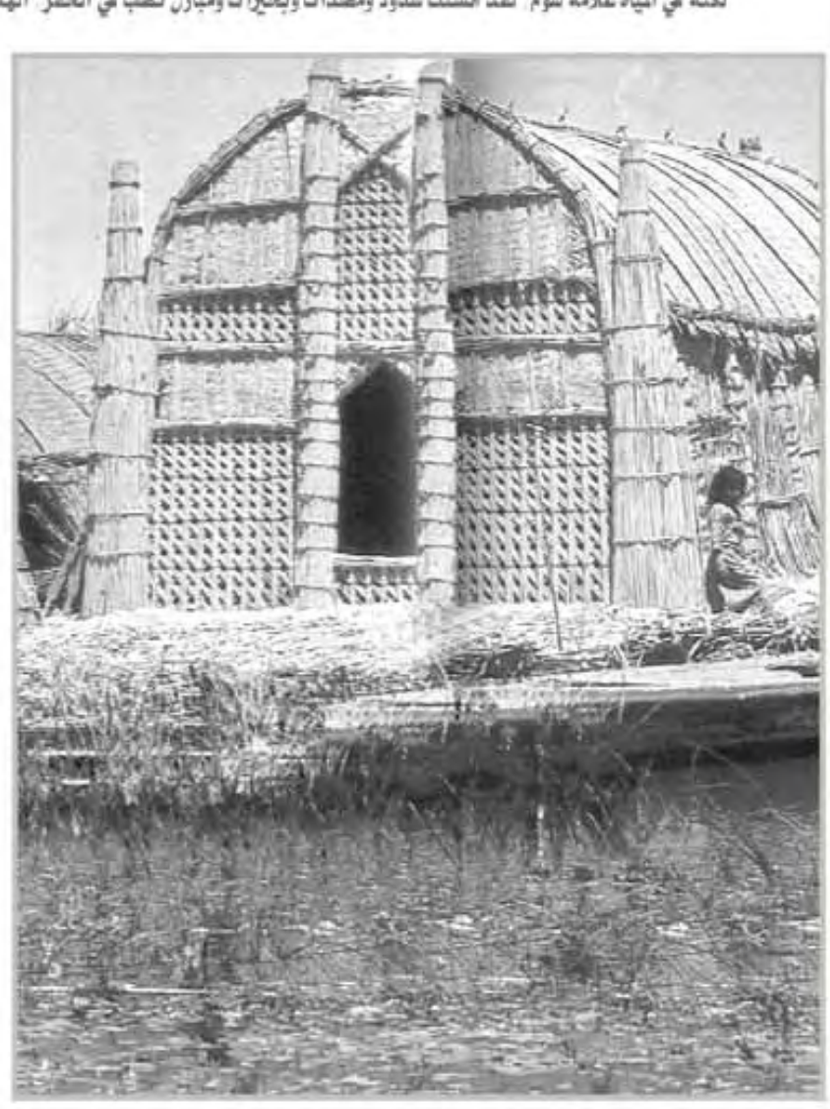

ميسان-محمد الحمراني

مياه راكدة ومياه حلوة

بعد سقوط النظام مباشرة امتلأت الأنهر والترع بالمياه. بدات التغيرات تتوالى. البعض قال ان صدام فتح السدود لكي يغرق قوات التحالف، الا أنهم لم يغرقوا بل هو الذي تزحلق. أيا كان الأمر فمناسيب المياه التي ارتفعت عدت بركة، قبل أن المياه غيرت طعمها.

التقينا مواطنا اسمه عبد الستار عبد الجبار أعطى لذلك الحدث صفة سياسية: فليس الماء وحده قد تغير بل حياتنا كلها. هذا المواطن كان يشكو من بقع حمر ظهرت في جلده، واولاده كانوا يصابون بالاسهال بين الحين والحين. وهكذا راح يشتري الماء الحلو . اولئك الذين استبشروا بتدفق المياه الحلوة في الأنهر تساهم هذا الخير المفاجئ فراحوا يشربون من مياه النهر .. ولم تكن المياه قد تطهرت حقاً.

المواطن محمد جاسم، صاحب محل لبيع الماء الصحي قال: بعد سقوط النظام قلت نسبة المشترين للماء بسبب تدفق الماء الحلو في الانهار .. لكن بعض العوائل التي لديها مرضى مزمنون واطفال مرضى واصلت شراء الماء الصافي. واضاف أن هناك (معاميل) يشترون يوميا الماء منه، وبعضهم كان يشتري نحو 60 لترا . الان لا يشتري غير الموسرين، علما أنه يبيع كل (5) لترات ماء بـ (100) دينار.

نسبة مخيفة!

في بداية الحرب أضحى الماء مشكلة حقيقية لدى سكان المدن في الجنوب، لان أغلب العاملين في شبكات المياه اختفوا بسبب الفوضى التي عمت الشارع العراقي . لكن ما يحسب لمصلحة مدينة العمارة أن شبكات الماء لم تتعرض للتخريب او السرقة.

ومن أجل الوقوف على واقع المياه بين اليوم والامس التقينا المهندس فالح حسن عبد الحسين من دائرة ماء ميسان الذي أعطانا معلومات قيمة بهذا الشأن، قال ان شحة الماء في السنوات الماضية وقذارته راجعة الى النسبة المائية القليلة التي كانت تعطى لمحافظة ميسان. فضلاً عن ذلك التأثيرات القاتلة للبحيرات الصغيرة التي أنشاها علي كيمياوي في محافظة واسط، فمنها كانت تخرج مبازل تصب مباشرة في نهر العمارة. حتى نهاية عام 1991 شكلت لجنة مختصة لفحص ذلك المبزل الكبير وكشفت الفارق الهائل في نسبة الأملاح قبل المبزل وبعده. وأضاف: ان نسبة الاملاح التي كانت موجودة في شط العمارة تراوحت ما بين 2000 الى 2800 1/ Mg في حين أن النسبة الصحية طبقا للمواصفات العالمية تتراوح مابين 500 الى 1500 Mg1/!

النهر ملوث 100%

لكن الناس الذين استبشروا بتدفق المياه عادوا الى سلوكهم القديم في شرب الماء من النهر، ومن الواضح انهم على خطأ. فقد التقينا الدكتور ريسان مهدي عامر مدير مستشفى الزهاوي وسألناه عما اذا وجدت حالات مرضية جديدة بسبب الماء فقال أن أغلب أصابات الاطفال بسبب الماء، والمرضى في حالة تزايد، وأغلبهم من الارياف ويشربون الماء مباشرة من النهر، في حين أن النهر يحتوي على نسب عالية من الاملاح والفضلات الحيوانية والبشرية. والامراض هي: الاسهال والكوليرا والتهاب الامعاء والزحار الاميبي والحمى السوداء.

تأكدنا من هذه المعلومات بعد ان التقينا الدكتور صباح حسن العطواني اختصاصي امراض الاطفال وسألناه عن التغيير الذي حصل على الماء بعد ارتفاع مناسيبه في النهر فقال: لم يحدث اي تغيير ، والنهر ملوث 100% ولا يمكن استعماله الا بعد الغلي. إن بعض البالغين قد يمتلكون قدرة على مقاومة الجراثيم اما الاطفال فلا ، والحالات المرضية التي يسببها الماء في تزايد.

واخيرا صدمنا في مختبر المستشفى عندما قالت لنا اسراء حمودي المختصة بعلم الاحياء المجهرية بأن ما يسمى الماء الحلو الذي يباع الان هو ماء خال من الاملاح ليس الا ، لكنه غير معقم. وخلال التحليلات السابقة اغلق اكثر من دكان لبيع الماء بسبب عثورنا على جراثيم ممتة في خزاناته .

لدينا هنا سلسلة مشؤومة: ماء النهر ملوث، والماء الذي يباع في الدكاكين.. حلو .. لكن تكون فيه جراثيم قاتلة. انه وضع محزن .. والأطفال ضحاياه الرئيسون.

إن امام صحة ميسان مهاما كثيرة.. اولها النوعية الصحية، وثانيها المراقبة.

نعم.. ارتفع منسوب المياه في الانهر .. فالسدود التي بنيت والبحيرات التي انشئت ازيلت في اللحظة التي سقط فيها تمثال الدكتاتور .. ويمكننا تأكيد ان الثروة السمكية في العمارة قد تبشر بخير .. لكن الماء مازال مشكلة بالنسبة للبشر